(١)

نظرة على العلم والإيمان

نظرة على العلم والإيمان

كما يؤدي الإيمان بالخلق إلى الإيمان بالخالق العليم القدير القادر على كل شيء الحيّ القيوم، فإن الإيمان بفرضية التطور يؤدي إلى حتمية الكفر بالخالق الواحد الأحد ووضع قوانين طبيعية غير واعية مفتقدة للمعنى في منزلة الخالق؛ في هذه الحالة تُمنح الذرات والمصادفات عقلًا وإدراكًا ومعرفة وتُوضَع محلّ الإله؛ إنَّ كثيرًا من الناس يدعي الإيمان بالله مع افتقارهم للمعرفة الحقيقية بأسماء الله الحسنى وصفاته، غير أن اعتقادهم أن فرضية التطور لا تتعارض مع الإيمان بالله الواحد يلزم عنه أن يكونوا عُصاة أو كافرين دون أن يدركوا ذلك، فبعض الذين يؤمنون أن الله خلق الكون في البداية يعتقدون أن الله ترك الكون بعد الخلق الأول ليدير نفسه بنفسه، كما تضبط الساعة ثم تتركها تعمل بنفسها، وأنه لم يفعل شيئًا بعد ذلك، وأنه ببساطة أوْكَلَ كل شيء إلى قوانين الطبيعة، وأن هذه القوانين تستطيع أن تجعل المخلوقات والنباتات والحيوانات بل البشر أيضًا يأتون إلى الحياة بأنفسهم على سبيل المصادفة.

لا يُدرك الكثيرون لأول وهلة أن فرضية التطور تؤدي إلى إنكار الله، وليتحقق ذلك تم تقديم فكرة التطور بالتدريج في صورة أفكار مفصلة، أُخفيت معالمها جيدًا تحت غطاء زائف من المنطق، لكنك عندما تتعمق في الموضوع باستكشافه خطوة بخطوة، تدرك في النهاية أن أساس فرضية التطور هو المصادفة، وقد تذهل عندما تجد أن المصادفة هي أساس الفكرة التي سادت دنيا العلم مائة وخمسين عامًا، ومع أنك غير مقتنع أن ملايين الكائنات الحية بأنظمتها الحيوية وأعضائها وأنسجتها وخلاياها

أتت إلى الوجود من خلال قوى الطبيعة غير الواعية، مُتدفقة كالتيار عبر ردود أفعال العناصر الكيميائية، فإنه من المتوقع أن تقف بلا حيلة في وجه "العلم" الذي تم تحويله بمهارة إلى مقدَّس يحظر الحديث فيه، وفي وجه وسائل إعلام قدمت فرضية التطور كأنها نظرية مثبتة لا شك فيها.

هذا الأمر يكشف لنا حقيقة مخزية عن الإعلام والعلم المزعوم، حتى إنه لا يكاد ينجو من هذا الإلحاد إلا من كانت لديه معرفة قوية جدًّا بالله، وإذا أردتَ أن تتصدى لأي تحريف أو كذب باسم العلم فستجد أن كل المعارف والمعلومات التي ظهرت ضد فرضية التطور يُسخر منها على أنها "بالية" و"غير علمية" و"رجعية" و"عقائدية"؛ وإذا كنت عالمًا فقد يحدث لك ما هو أسوأ؛ لأن النظام القائم يستطيع أن يفعل أي شيء ليعيق تقدم مسيرتك الأكاديمية، وقد تدان في وسائل الإعلام بدون محاكمة، وقد يستخدم أي نوع من الخداع لفصلك؛ لا لشيء سوى أنك شكّكت في تلك العقيدة وحاولت الإتيان بفكرة بديلة، وسيزعم معارضوك أن ما كتبته في هذا المجال ليس له أيّة قيمة لأنك تؤمن بالله، أي إنه تبعًا لتلك الفكرة الممسوخة "لا يمكن أن يجتمع للعالم علم وإيمان بالله" وأن "فرضية التطور هي ظاهرة مسلَّم بها لا يمكن التشكيك فيها"؛ لذلك "عليك أولًا أن توافق على هذه النظرية، ثم يمكنك أن تناقش كيف حدثت"، ولا ينبغي أن تعدّ كلامي هذا مبالغًا فيه، ففي الواقع تعرّض مؤلف الكتاب لتلك الحوادث المؤسفة في أبشع صورها.

قبل أن أبدأ النقاش حول "الخلق مقابل التطور"، وقبل مناقشة الدليل العلمي المؤيد للتطور، يجب توضيح نقطة أساسية؛ إذا تعامل هؤلاء الذين يؤيدون فرضية التطور معها بوصفها مُعتقدًا، فلن يستطيع أي شخص قول شيء لهم ليغير رأيهم؛ نظرًا لأن المعتقدات والإيمان لا يمكن مناقشتهما،

وبغض النظر عما يؤمن به الشخص يجب احترام ذلك؛ فالذين يؤمنون بالله خالق الخلق لهم الحق في الإيمان واليقين بالله، والذين يؤمنون بفرضية التطور وارتقاء الكائنات لتصبح كائنات حية لهم الحق في الإيمان بالتطور وظهور الكائنات نتيجة القوى الطبيعية، وربّما كان بعض هؤلاء الأشخاص ملحدين أو لا أدريين أو موحدين؛ فهي مسألة إيمانية تخص هؤلاء الأشخاص وحدهم، لكن من ناحية أخرى لا يحق لهم أن يفرضوا على الآخرين قبول ما يعتقدون أنه "حقائق مطلقة مُثبتة" أو "قرارات علمية لا يمكن أن يقابلها أي رأي مضاد"، ولا أن يتدثروا بثوب "العلم" ليصفوا الذين يؤمنون بالله بأنهم "رجعيون".

في وقتنا هذا لا يُشكك أحد في الجاذبية أو الضغط الجوي أو تمدد المعادن، بل إن الكثير من الأحداث المادية يتم تفسيرها من خلال هذه الظواهر التي تعبر عنها معادلات، ويتم حل المشكلات باستخدام هذه المعادلات، ونحن نعلم جميعًا أن هذه الأمور ليس لها أي علاقة بما يؤمن به الإنسان لأنها موضوعات علمية، لكن وجود الملائكة والجن على سبيل المثال ليس مسألة علمية، بل مسألة إيمانية، وعمومًا تُدرس هذه المفاهيم بالطرق العلمية المعتادة التي تصلح في مجالات محدودة، ولا يتم ملاحظتها أو اختبارها بطريقة موضوعية، بل هي خبرات شخصية يكتسبها المرء باستخدام قلبه وقدراته الفطرية، لذا تكون مرتبطة بمعتقدات الإنسان.

إن فكرة التطور لا تُشبه قوانين الفيزياء سابقة الذكر، ولا يمكن اختبارها بالقلب أو الروح، بل هي مسألة اعتقاد تم الوصول إليه بملاحظة غزارة المخلوقات في الطبيعة، وبتفسير بعض التغيرات في الكائنات الحية، ومن هذا المنطلق تصبح "فرضية التطور" مجرد معتقد، أو مذهبًا عقائديّا.

إن الدين هو المصدر الرئيس للقيم التي تشكل حياة الشخص، وإذا آمن شخص بوجود الله فسيلاحظ الآخرون انعكاسات هذا الإيمان في كل لحظة من حياة هذا الشخص، وبالمثل يؤثر الإيمان بفرضية التطور في حياة الذين يتمسكون بها، وتصبح سببًا رئيسًا في تشكيل حياتهم مثلها في ذلك مثل الدين، نعم للذين يؤمنون بفرضية التطور حقّ "ممارسة" معتقداتهم وتدريسها، لكن لا حقّ لهم في مهاجمة الذين يؤمنون بالأديان السماوية ولا يفكرون مثل تفكيرهم، كما لا يحق لهم عدّ معارضيهم أعداء للعلم.

قديمًا كان علم الأحياء وصفيًّا، أي كان يهدف إلى تفسير ما كان موجودًا منذ العهود القديمة، وقد حاول أن يبحث عميقًا ليصل إلى المعرفة الكونية بملاحظة التصميم المثالي والصنعة المتناغمة في الكائنات الحية، وبجمع المعلومات عن تركيب أجهزة وأعضاء وأنسجة وخلايا النباتات والحيوانات الموجودة في الطبيعة وطريقة عملها، علاوة على ذلك، حاول علم الأحياء بتحليل هذه المعلومات فهم المبادئ العامة على مستويات أعلى، وكان جمال الكائن الحي الذي يخضع للدراسة، والتركيب المثالي الخالي من أي عيوب، والترتيب الشموليّ، والنظام البيئيّ، كلها كانت تدعو أي شخص عقلاني فطِن للبحث عن الخالق.

لكن على العكس من ذلك، تحطمت العلاقة المتناغمة بين الدين والعلم عندما أرجعت فكرة التطور هذه التركيبات والآليات المتقنة إلى عمليات عشوائية لقوانين الطبيعة تحدث بلا حكمة أو إدراك، بدلًا من نسبتها إلى الخالق، وانفصل التفكير العلمي عن الدين، وتزامن مع ذلك أن أصبح العلم موضوعًا مقدَّسًا لا يمكن مناقشته، لقد انحط استخدام علم الأحياء، من تفسير أوجه جمال الحياة لتثبيت الإيمان في قلوب الناس،

إلى رؤية الحياة على أنَّها ظاهرة نشأت من تلقاء نفسها، وبما أن المعارف الناشئة في الفيزياء والكيمياء أدت إلى تحقيق تطورات تكنولوجية في مجالات الفلك والهندسة والطب؛ فقد زادت من شجاعة أولئك الذين أحاطوا العلم بهالة قدسية، وزادت من شعور المتدينين بالخجل والميل إلى الإحجام عن الانخراط في العلم، لكن هذه التطورات هي ثمرة المواهب التي منح الله البشر إياها، أي ثمرة العمل الدؤوب وبذل الجهد وتكريس الوقت للبحث والتجريب، لقد خلق الله الإنسان في أحسن صورة وأعطاه سلطة التصرف في كل ما على الأرض عندما رفعه إلى منزلة "الخليفة" في الأرض، ثم بدأ الإنسان في ابتكار التقنيات ليحقق لنفسه السعادة والراحة، مستخدمًا المعرفة التي منحه الله إياها، لكنه زعم أن هذه التطورات هي نجاحاته الخاصة، وأرجع كل حدث إلى قوانين الطبيعة، ورفض وجود الخالق.

لقد ضعفت المسيحية تحت ضغوط كل هذه العوامل، فلم تستطع أن تستعيد السلطة التي فقدتها مع مجيء عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني، وسقطت في شباك الأفكار المادية والوضعية لـ"الفهم العلمي الجديد"، في هذا الجو العام عُرِضَتْ "فرضية التطور" أمام الناس جميعًا بمساعدة وسائل الإعلام وغيرها من "القوى الخفية" -أي الخطط والمؤثرات الخفية- التي تحكمت في البيئة العلمية؛ لذلك فُسِّر كل اكتشاف وكل المعلومات والبيانات التي تم التوصل إليها من منظور تطوري، وتم التعليق على كل سيناريو وعمل أدبي مؤلف بطريقة تدعم فرضية التطور، حتى أصبحت النموذج السائد، وبهذا احتلَّت فكرة التطور التي اكتست برداء العلم أفضل المواضع في الكتب العلمية، وقد كان جيرمي ريفكين محقًّا حين قال:

"إن فرضية التطور وُضعت في النقطة المركزية من نظامنا التعليمي، وأقيمت جدران عالية حولها لحمايتها من أية إساءة، وبُذلت الجهود لضمان عدم المساس بها، لأن أقل خدش فيها قد يقود إلى التشكيك في الأساس الفكريّ الكليّ للرؤية العالمية الحديثة"[٣].

هذا وقد تفوَّه هكسلي بكلام غير معقول عندما صرح بثقة أن فرضية التطور لداروين لم تعد نظرية بل أصبحت حقيقة، أي إنه يرى استحالة أن ينكر أي عالم ذي شأن حدوث التطور كما لن ينكر دوران الأرض حول الشمس[٤]، لكن من الغريب جدًّا أن تزعم فرضية التطور أنها "علميَّة"، ثم لا تحترم معيارًا أساسيًّا من معايير الدراسات العلميّة: الإصغاء إلى النقاشات المعارضة ومحاولة فهمها؛ بالإضافة إلى ذلك، حارب مؤيدو فرضية التطور أية محاولة لمقاومة أفكارهم باعتبار النقاشات المعارضة لهم "غير علمية"، أو "متعصبة"؛ فاكتسبت فرضية التطور مناعة "مقدسة" مع مرور الوقت، لقد ابتكر البشر التكنولوجيا لتحقيق السعادة والراحة بواسطة المعرفة التي منحهم الله إياها، لكنهم نسبوا كلّ التقدم إلى إنجازاتهم الشخصية وإلى قوانين الطبيعة، ورفضوا الإيمان بالخالق العظيم.

كان داروين لا أدريًّا (يعتقد أن وجود الله أمر لا سبيل إلى معرفته) في بعض مواقفه، وكان ربوبيًّا (مؤمنًا بالله وحده) في مواقف أخرى، لكنه في الحقيقة كان مسيحيًّا مخلصًا قبل أن يعرِض فرضية التطور، بل إنه ارتاد مدرسة كهنوتية، إلا إن الفكر التطوري كان له تأثير هائل على الساحة العلمية بعد أن أخذت الفرضية شكلها ونُشرت في كتاب؛ وبصورة رئيسة يمكن ذكر عدة عوامل أساسية لقبول فرضية التطور في أوروبا وانتشارها السريع في المجتمع العلمي:

---

(٣) Jeremy Rifkin, Algeny: A New Word, A New World. (Penguin: 1984).

(٤) Julian Huxley, "At Random – A Television Preview," Evolution After Darwin, (University of Chicago Press 1960) ed. Sol Tax, Vol. I, p. 42.

أولا: كانت نقطة البداية مع داروين هي الظاهرة التي لاحظها في الطبيعة، في بداية الرحلة الطويلة التي قضاها داروين على متن سفينة اسمها "بيجل (*Beagle*)"، أذهله تعدد الكائنات الحية وثراء التنوع بين الأصناف الحية ومثالية أنظمة التكيف العديدة في الأصناف الفرعية، غير أن ضعف وعيه الديني، وخاصة عدم معرفته بأسماء الله الحسنى وصفاته -وهي معرفة يمتاز بها الإسلام- أدى إلى عدم قدرته على تقدير هذه البيئة المزدهرة أو فهمها، ولم يكن لدى داروين أيضًا إدراك كافٍ لـ"الصراع" -وهو إحدى ضرورات الانتخاب الطبيعي وأحد مبادئ الخلق في عالم الأحياء- فافترض أنه المبدأ الأساس وراء كل الموجودات، وكان من نتيجة ذلك أن بنى داروين فرضية التطور كلها على مبدأ الصراع؛ ومعلوم أن التركيز على جانب واحد من جوانب التنوع البيولوجي مع إغفال الجوانب الأخرى يمنحه أثرًا أكبر من غيره.

ثانيًا: قصور التعليم المسيحي في تفسير التقدم والتطورات الجيولوجية، فلم تكن فكرة تغير الأرض عبر ملايين السنين واتخاذها الشكل الحالي مقبولة في البداية، وعندما تم تقديم أدلة إيجابية نسبيًا لإثبات أن الجبال والأنهار والبحيرات والبحار والغابات والصحاري قد مرت بمراحل عديدة، جعل هذا من الأسهل تقبل فكرة أن النباتات والحيوانات قد ظهرت أيضًا ببطء، وتطورت من أشكال حية بسيطة على مدى فترة طويلة جدًّا من الوقت.

ثالثًا: انقطاع العلاقات بين العلماء والكنيسة بسبب السلوك الجائر للمؤسسة الكنسية خلال الفترات التاريخية الحرجة التي ترجع إلى أيام محاكم التفتيش في العصور الوسطى؛ وكانت تفسيرات علماء اللاهوت الخاطئة الناتجة عن التفسيرات الحرفية لعبارات الكتاب المقدس

التي تصف عملية الخلق غيرَ كافية للحصول على فهم ملائم للتطورات العلمية؛ ولذلك كانت معارِضة بشكل جوهري للعقل البشري والمنطق مقارنة باحتياجات الوقت.

رابعًا: سياق فرضية التطور جعل منها بيئة خصبة لتعليقات الحركات الفلسفية الماركسية والمادية والوضعية، وجعلها تخدم مذاهب فاشية وعنصرية معينة.

خامسًا: ارتفاع التوقعات نتيجة ارتفاع الدخل ومستويات المعيشة نظرًا للنشاط الاجتماعي والاقتصادي في العديد من شرائح المجتمع الإنجليزي في عهد الملكة فيكتوريا.

لا تقتصر فرضية التطور على الادعاء بأن "الإنسان أصله قرد" كما يعتقد عامة الناس، صحيح أن المشكلة الكبرى تدور حول فكرة أن الإنسان والقرد من نفس الفصيلة وأنهما تمايزا من خلال انقسام السلالة، لكن في حقيقة الأمر هذا جزء واحد فقط من فرضية التطور؛ لهذا قد يبدأ بعض الناس في الظنّ أن "الله خلق البشر والقرود من نفس الفصيلة، أو خلق الإنسان من كائن حي يشبه القرد، "لكن أساس الفكر التطوري لا يعتمد فقط على تطور البشر، بل على تطور الكون بأكمله، أي تطور كل شيء سواء كان حيًّا أو غير حيّ، من خلال المصادفة دون الحاجة إلى خالق، بهذا أصبح الجدل بشأن تطور البشر من القرود هو أصغر جزئية من الموضوع تُناقش علنًا، ولا ريب أن الله أن يخلق أي كائن حي في أي شكل يشاء، لكن الفكر التطوري عندما يحاول فرض آليات معينة (الانعزال، والتحور، والتكيف، والانتخاب الطبيعي) على عملية نشأة البشر، فإنه بذلك يدعي أن قوانين الطبيعة -أي القوى التي لا ترى

ولا تعقل ولا تُدرك واجتمعت بواسطة المصادفة– هي التي خلقت كل الكائنات الحية.

تبعًا للفكر التطوري فإن سلسلة المصادفات التي بدأت بالانفجار العظيم تعاقبت واحدة تلو الأخرى، مكونة كل أنظمة المجرة وجزر النجوم ومليارات النجوم ودرب التبانة والمجموعة الشمسية والأرض؛ وأكثر الظروف الملائمة لحياة الكائنات الحية على الأرض، إن هذا التفكير يؤكد عدم الحاجة إلى خالق بما أن كل هذه الآليات قد حدثت من نفسها دون أي معرفة أو إرادة أو قدرة أو نية أو هدف، وهذا الشكل لفكرة التطور يجعلها تعمل بشكل كامل أداةً لخدمة الإلحاد.

يدَّعي معظم المؤيدين للتطور أن فكرته مجرد نظرية، لكنها بالنسبة للبعض قانون لا خلاف عليه، وبالفعل فإن التطور فكرة لا تستطيع أن تتجاوز في شكلها كونها فرضية، ولم تخضع أيّة فرضية أخرى في تاريخ العلم للمناقشة كل هذه الفترة الطويلة. إن الفرضية التي يتم اقتراحها لتفسير حدث تصبح نظرية -أو لا تصبح- بعد أن تُختبر من خلال العديد من التجارب والملاحظات وتدعمها النتائج أو لا، وإذا أصبحت الفرضية نظرية فإما أن تصبح قانونًا أو مبدأ عامًّا بعد استخدامها لفترة، وذلك تبعًا لقوة تفسيرها، وتُنبذ لعدم صلاحيتها.

لقد أجرى الذين يؤمنون بالتطور كثيرًا من التجارب لتأكيد أفكارهم، وأضافوا تعليقات مفصلة حول الملاحظات التي رصدوها ولا حصر لها، لكنهم لم يجدوا تفسيرات كافية أو براهين مقنعة إلى حد ما لدعم فكرتهم؛ لذلك تُركت نظريتهم ناقصة وغير كافية، وفي الحقيقة لا أحد يعلم أي شيء عن طبيعة الظروف على وجه الأرض في البداية، ولا عن اللحظة الأولى من خلق الكون، والأحداث العظيمة المذهلة التي

حدثت بعد ذلك، بل تم وضع الأفكار بناءً على بعض خواص العناصر والصخور الموجودة الآن، بدعوى أنَّها مؤشرات تاريخية دقيقة، أضف إلى ذلك أن المؤيدين لفكرة التطور- الذين وصفوا الظروف على الأرض في البداية وفق رغباتهم الخاصة – اختاروا الخصائص الأساسية للأرض الصناعية بحيث تستطيع الأحماض الأمينية فالبروتينات أن تنشأ بنفسها، ثم قاموا بتخطيط الغلاف الجوي للأرض تبعًا لأهوائهم، لكن التجارب التي أُجريت في الظروف التي قيل إنها كانت موجودة على الأرض في ذلك الوقت أثبتت استحالة تكوّن جُزَيء بروتين واحد، وهو أبسط متطلبات نشأة الحياة، بالإضافة إلى ذلك، هناك الكثير من الدراسات التي تظهر أن الظروف البدائية للأرض والغلاف الجوي لم تكن على الصورة التي يدعيها المؤيدون للتطور، وسيرى القارئ من أجوبة الأسئلة التالية أن التطور حظي بدفاع مستميت على أنه نظرية بالرغم من دحضه باستمرار من خلال التجارب؛ والحق أن التطور لم يبلغ أن يكون قانونًا أو مبدأ عامًّا، بل إنه لا يزيد عن أن يكون فرضية في المناقشات العلمية.

إن التطور ليس بنظرية، وليست له أيّة علاقة بالعلم، فتعريف العلم وخصائصه ومعيار كون الشيء "علميًّا" قد تم توضيحه بالتفصيل في كتب لا حصر لها عن نظرية المعرفة وفلسفة العلم، وناقش فلاسفة معروفون أمثال كون وبوبر ولاكاتوس وفايرباند بنية العلم.

باختصار، يدرس العلم القضايا التي يتم تحديدها بواسطة تجارب متكررة أو بواسطة بيانات ومعايير يمكن قياسها وتقييمها بوضوح، أمَّا التخمين فلا مكان له إلا في الأحداث التي حدثت مرة واحدة في الماضي وتكرارها مستحيل؛ لذلك لا يمكن تطبيق المعايير العلمية عند البحث عن حقائق هذه الظواهر.

يخبرنا الفيلسوف كارل بوبر أن النظرية لا تكون علمية حتى تعطينا الفرصة لإثبات قابليتها للخطأ من خلال التجارب العلمية، فمثلًا تُعَدّ الفيزياء علمًا حقيقيًا لأنها تقدم تنبؤات عن الأحداث، يمكن أن يَثْبُت بطلانها من حيث المبدأ. بمعنى آخر، لا تعتبر إمكانية إثبات الخطأ أو الدحض ضعفًا في المجال العلمي، بل هي ميزة عظيمة تمنحنا فرصة التحقق وترسّخ أساسًا قويًّا للدراسات في هذا المجال، كما تمنح فرصة تمييز الادعاء عن الحقيقة، وتمكّن من رصد قابلية التطبيق النسبية للنظرية فيما يتماشى مع "الطبيعة"، ووفقًا للفيلسوف بوبر، فإن فرضية التطور ليست علمية مثل الفيزياء والماركسية نظرًا لما فيها من نقص خطير، فهي كغيرها من الظواهر التي تخضع للملاحظة والشرح لإثبات صحتها.

وهكذا فإن خاصية القابلية للخطأ أو الدحض تضفي للشيء ميزة ليصبح له مفهوم أصيل في العلم، ويمكن أن نطلق على هذا "معيار تعيين الحدود"، إذًا هناك نظريات يمكن دحضها من خلال التجريب، وهناك مجموعات من النظريات تتسم بعدم الوضوح ولا تسمح بالتحقق منها من خلال الاختبار، بالنسبة للمجموعة الأولى فهي تنتمي لمجال العلم، بينما تلك التي تقع في المجموعة الثانية تنتمي إلى مجال الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)، وفرضية التطور من المجموعة الثانية، ويؤكد الفيلسوف بوبر أن التطور ليس نظرية علمية، لأن الداروينية ليست نظرية علمية قابلة للاختبار، بل برنامج بحثي ميتافيزيقي، وبمعايير النظريات العلمية القابلة للاختبار فإن فرضية التطور غير محددة ألبتة، ومعرضة لكل أنواع النقد، وهو يعتقد أن الداروينية لا تستطيع تفسير أصل الحياة[٥]. يقول فيليب جانفييه:

---

[٥] Karl Raimund Popper, Unended Quest: An Intellectual Autobiography. (Illinois: Open Court, 1976) The Library of Living Philosophers, Vol. 1, p. 133.

"إن النظرية الميتافيزيقية يمكن أن تكون صحيحة، لكن مع وجود خلل خطير بها، فهو يرى أنه من المستحيل عمليًّا أن يتم اختبار فرضية التطور"[٦].

والسبب أننا إذا كنا ننظر إلى تاريخ الحياة على الأرض ونشأتها وتطورها على أنها صورة تلو الأخرى من فيلم سينمائي، أي فيلم واقعي، فمن المستحيل إرجاع شريط الفيلم ومشاهدته مرة أخرى من البداية.

ونظرًا لادعاء البعض أن التطور حدث على مدى زمني (جيولوجي) طويل؛ من غير المعقول اختباره بالتجارب والملاحظات، لهذا يستحيل على العلوم الطبيعية أن تفنده، والنظرية التي لا تمنح فرصة دحضها أو فرصة إثبات خطئها، لا تتمتع بالسمات اللازمة لقبولها على أنها علمية.

على الأقل نستطيع أن نقول: إننا نواجه موقفًا حرجًا ومحيرًا، فمجرد التفكير أو ادعاء أن فرضية التطور علمية لا يجعلها مناسبة للاختبار العلمي، فلا يمكن ملاحظتها أو استنباطها أو قياسها، لكن مؤيديها يريدون أن يتم اعتبارها حقيقة مُثبتة ودامغة عن بداية الحياة وتطورها، في هذه الحالة سيرغب أي عالم يحترم نفسه ولديه رغبة في التثبت بطلب دليل واقعي يؤيدها، بل يجب عليه طلبه، ولا ريب أن عالم الكيمياء الحيوية الروسي ألكسندر أوبارين محق حين قال: "إذا كنا نبحث عن دليل، فلن نتمكن من الحصول عليه أبدًا"[٧]، فهو يرى أنه يستحيل إيجاد دليل في الكيمياء أو الفيزياء يصف التكوّن البيولوجي للكائن الأول.

---

(٦) Phillippe Janvier, "Phylogenetic classifications of living and fossil vertebrates." Bulletin de la Societe Zoologique de France, 1997, Vol. 122, pp. 341–354.

(٧) Aleksandr Ivanovich Oparin, Life: Its Nature, Origin and Development. (London: Oliver&Boyd 1961), p. 33. Translated from Russian by Ann Synge.

إذا لم نستطع إثبات التطور بالطرق العلمية فلن نستطيع إثبات العكس، وهذا تأكيد معقول لا ريب فيه، ونفس الشيء ينطبق على النظريات الأخرى التي تتعارض مع الشروط الثابتة الموضوعة للأسلوب العلمي، لأنه كما أوضحنا سابقًا، لا تقبل النظرية علميًا حتى تكون قابلة للدحض أو التفنيد، بمعنى آخر يجب أن تكون النظريّة قابلة للاختبار لإثبات صحتها أو خطئها، فمجموعة الأفكار التي لا يمكن دحضها مبدئيًا ليست علمية، فمثلًا فيزياء نيوتن نظرية يمكن تفنيدها، لأن قوانين نيوتن قابلة للتجريب والاختبار لإثبات صحتها، لكن يستحيل تحديد ما إذا كانت الأفكار التطورية حقائق علمية أم لا، فداروين نفسه أدرك هذه الحقيقة الأساسية، ففي خطاب كتبه عام ١٨٦٣م أقر أنه لا يمكن على مستوى التفاصيل الدقيقة إثبات أن الأجناس تغيرت أي إننا لا نستطيع إثبات أن جنسًا واحدًا قد تطوَّر، أو أن التغيرات المزعومة نافعة؛ وهذه هي الركيزة الأساسية للنظرية[٨].

بما أن فرضية التطور لا تعتمد على الملاحظة العلمية، فلا بد أنها مسألة اعتقاد شخصي، إن أفضل ما يمكن أن يقال عن الفرضية التطورية أنها تمثل مُعتقدًا غير قابل للإثبات أو الدحض يتشارك فيه الكثير من الناس حول كيفية تطور الحياة، لا شك أن لكل شخص الحرية في معتقداته ونظرياته وآرائه الشخصية، لكن مؤيدي التطور يزعمون أن فرضية التطور تتجاوز كونها مجرد اعتقاد؛ فهم يرونها حقيقة واضحة رغم عدم إمكانية إثباتها، ولا يتقبلون أي آراء معارضة تتعلق بالمعتقدات الأساسية للتطور.

---

[٨] Francis Darwin (ed.), "Letter to Asa Gray." The Life and Letters of Charles Darwin, (New York: Appleton, 1887), Vol. II, p. 67.

قد لا يرى البعض أن الموقف خطير، لكن يبقى من المهم أن نفكر للحظة في الأساليب الوحشية لمؤيدي فرضية التطور أثناء تأكيدهم لأفكارهم، وعدم تسامحهم وتشددهم تجاه الآراء الأخرى، فأساليبهم العنيفة تُذكر الجميع بنمط سلوكي شائع جدًّا لاحظناه للأسف منذ بداية البشرية، لقد أصبح مؤيدو فرضية التطور الآن "مؤمنين مخلصين" للنظرية بكل جوارحهم، فقد تم تعميدهم في الانتخاب الطبيعي، وبدؤوا في نشر الأخبار الجيدة، وشرعوا في نشر هذه الرسالة بين الآخرين، حتى يعتنقوا هم أيضًا تعاليم داروين.